هيمنة الثقافة.. داء العصر العضال

هيثم امين

خاض البشر منذ العصور الاولى صراعا دائما من اجل البقاء، في مواجهة كائنات تفترس نصيبيهم من الطعام وفرحتهم في الامان وحقهم بالحياة. وتعلم هؤلاء ان ارتباطهم معا في مجموعات صغيرة يزيد من فرص نجاحهم امام هجمات الكواسر الضارية، ومنحت الحاجة للحماية والسعي للامان افراد هذه المجموعات اكثر من حافز لتطوير شبكات العلاقات فيما بينهم، تلك الشبكات التي رسمت هويتهم وميزت ثقافتهم فيما بعد.

كانت الثقافة آنذاك محض محاولات دفاعية لامتلاك مقومات الحياة، ودعم غريزة البقاء. وكانت حاسة التوجس من الخطر الداهم، والخوف من الضواري المتربصة هي التي دفعت الجماعات البشرية للتقارب. ولعل مثل هكذا رؤيا حول نشأة الثقافة وعلاقاتها التي لا تنفصم عن نشأة المجتمعات تقودنا الى حتمية الاصول العاطفية للثقافة.

ولان الخوف والقلق مازالا يغذيان البشر حتى يومنا هذا، فأن افكارهم ومشاعرهم تتأجج تلقائيا حين يستدعي احد المواقف الحياتية، ما يجعلهم يمثلون دور الفريسة في مواجهة الضواري. ولكن ما ضواري عصرنا هذا؟!.

لقد اورثت ظروف الحياة القاسية، واحتمالات الاحساس بالخوف من الحيوانات والبشر "الاخرين"، انظمة الادراك لدى البشر، بشكل جعل دفاعهم عن الذات مشحونا بالعدوانية، والغضب، وهي آليات تميز علاقة الفريسة بالكواسر.

ووفق هذا المنظور، يحق التساؤل: الا يعبر ذلك عما تعيشه البشرية الان من صراع، وما آل اليه عالمنا من تدهور؟

وينسحب هذا التساؤل الى كل بؤر الصراع في العالم، بعد ان نسجت الحروب الشباك العنكبوتية على خريطته، ولم يعد هناك بلد لا يعاني ويلاتها ولم تبق ثقافة لا تصارع اخرى واصبحت الحرب هي القاعدة وبات السلام هو الاستثناء، وكأن مئات الالاف من سنين عمر البشر لم تفلح ان تداوي جرح الذاكرة الانسانية، التي تلخصت في صورة وحيدة – صراع من اجل البقاء– واستبدلت ديناصورات ما قبل التاريخ باعداء جدد، كأنها دورة لاتنتهي ولاارتياح الفريسة فيها ابدا ودوامة لاتهدأ حتى تغرق الجميع.

وهيمنة الثقافة –في هذا السياق– مدخل للهيمنة الاقتصادية والسياسية على الامم الاخرى، وفرض ارادة الاقوى والعمل على سحق كل امكانات القوة المستقبلية لدى الاضعف، وهذا لاياتي الا بالقضاء على ثقافته والحاقه تباعا بثقافة الاقوى.

وعلى سبيل ذكر ثقافة الاقوى، فقد تكاد ان تكون علامة لمسخ الثقافات الاخرى ومزجها وصبها في قالب واحد مصمت. لايعترف بالتفاصيل الفارقة ولايعلي بها، مما يجعلها معادية لروح الثقافة التي يقوم ثراؤها على التنوع وتستمد خصبها من التعدد.

ولا ندري هل نتفق جميعا في كل انحاء الكرة الارضية على من نحب ونكره من ساسة وقادة وفنانين وغيرهم ممن غيروا وجه العالم؟. والحق، ان تلك قضية اساسية حول محور الثقافة ووسائل الاعلام من جهة، وسدنة المحافظين على الثقافات من جهة اخرى.

ان التنوع مطلوب ومرغوب ويزيد الثقافة خصوبة واتساعا، ومعرفة الاخر عن طريق ثقافته شرط للتعايش والتفاهم والسلام، وعلى الاخر ان يستوعب الثقافة الاخرى ويتعايش معها ضمن منظور اشمل واوسع للعلاقات بين الشعوب والجماعات كطريق امثل للتفاهم والتعاون وبالتأكيد لن تستسلم اي من الثقافات بسهولة ويسر، وهي اكثر عراقة وحكمة ومخزونا من تلك التي تحاول الهيمنة اليوم.

حماية سكان ما بين النهرين الأصلاء... مسؤولية من!

ادور ميرزا

بداية اقول ان الحياة هي حق وهبة الله عز وجل لبني البشر، وان الحفاظ عليها هو تعبير عن الرقي الانساني والأخلاقي والثقافي للإنسان، وان اي دعوة لإلغاء هذه المنحة الإلهية ليست بالضرورة ان تكون مدفوعة بدعوة دينية معينة، انما في غالبيتها تصرفات شخصية ناتجة من اناس جهلة واميون، لأني اؤمن بان هذه الحياة ليست ملكا لأحد بل انها ملك الجميع وان حمايتها واجب يفرضه علينا الله اولا واخلاقنا الانسانية ثانيا، ان اشاعة ثقافة التعايش السلمي في المجتمع الذي تتعدد فيه الأديان والمعتقدات اصبح الهدف الذي يسعى اليه الخيرون لإدامة الحياة، وان حكومات الدول تتحمل الجزء الأكبر لهذه المهمة... ولكن ومع الأسف ففي العراق فقد ذبح وشرد المسيحيون دون ذنب، فبعد ان اشيع بان الحرب على العراق هي حرب تحرير واشاعة الديمقراطية بين ابناء شعبه اتضح بانها لم تكن كذلك، فقد حصل العكس حيث انتشر العنف الطائفي والذي طال الجميع، وقد اصبح المسيحيون في العراق وهم اقلية مسالمة هدفا سهلا للعصابات والميليشيات المسلحة، واشير هنا بان بعضها كان تابعا لبعض الأحزاب المتطرفة المشاركة في الحكومة والبعض الآخر كانت عصابات خارجة عن القانون ومن ازلام النظام السابق الى جانب الارهابيين من خارج الحدود، لقد تأكد للعراقيين جميعا وبضمنهم المسيحيون بان هذه العصابات لا تمت بصلة لا للاسلام ولا للمشاعر الانسانية بل انها مجموعات عدوة للحياة، حتى ان المهتمين بشؤون مصير الأقليات في هيئة الأمم المتحدة وصفوا جرائمها بجرائم الإبادة الجماعية، حيث انها تنفذ في وضح النهار وتحت مرأى ومسمع من يحكم العراق، لقد افصح غالبية المسؤولين في العراق عن توجهاتهم الطائفية منذ اليوم الأول لاستلامهم ادارة البلاد مما جعل اتباع الديانات غير المسلمة وبضمنهم المسيحيون عدم الوثوق بهم. أذكر المعنيين في الحكومة والبرلمان بان ابشع ما تعرض اليه المسيحيون كان في عهدها وقد فاق الحدود، فقد تم تفجير العشرات من كنائسهم في بغداد لوحدها، واغتيل كبار رجال الدين، وتم ذبح العشرات من اهلنا بسبب عقيدتهم الدينية، ناهيك عن تهجير المئات من العوائل من البصرة وبغداد والموصل وغيرها، الا تشعر هذه الحكومة بالمسؤولية على ما يحدث من جرائم بحق العراقيين وتحت انظارها، الا تعلم بان اجهزتها الأمنية والميليشياوية لها دور في كل ما يحدث، ثم اين الأمان والخير الذي وعدت به شعب العراق؟! يتحدثون عن التحرير والديمقراطية، اي حرب تحرير هذه التي يتبجح بها المسؤولون، اي حرية عبادة هذه، واي حقوق انسان تمتع العراقيون بها في زمنهم، اتدرون بان تعداد سكان المجتمع المسيحي في العراق قبل الحرب كانت حوالي ١,٧٥٠ مليون، بينما التقديرات الحالية لمن تبقى منهم في العراق تقع بحوالي ٥٠٠ خمسمائة الف، كيف حصل هذا التناقص الرهيب ولماذا، اليس من مسؤوليات الحكومة البحث عن أسباب هذا التناقص؟ واليس من حقنا المطالبة بالكشف عن المسؤولين عن ابادة وتشريد هذا الشعب التأريخي الأصيل واحالته الى محاكم جرائم الحرب الدولية لينالوا جزاءهم العادل؟ يحضرني تعهد السيد نوري المالكي رئيس حكومة العراق بتشديد الحماية للشعب المسيحي بعد مقتل رئيس الأساقفة المرحوم الشهيد فرج رحو في الموصل، ولكن وللحقيقة نقول بان ما بعد مقتل الشهيد فرج فقد خطف وقتل العشرات وتم ملاحقة المئات من العوائل الآمنة لإجبارها على ترك مساكنها، كما شهدنا مؤامرة كبيرة وخطيرة لإقصاء هذا المكون من كل مادة دستورية تحمي وجوده على ارض العراق، نعم "مؤامرة" لأنها نفذت كما حدث للعراق، فطريقة المؤامرات واحدة..

حيث اتفق بعضهم ممن لا يريد الخير للعراقيين وبطريقة المتخفين في درابين مظلمة على تنفيذ مؤامرتهم، فالجتمع هذا البعض على ما يخدم مشاريعهم المستقبلية، فاطلقوا صيحتهم النشاز بالغاء المادة ٥٠ والتي تتيح للاقليات بالمشاركة والتمثيل في كل مؤسسات الدولة ومحافظاتها، فبالرغم من ان الدستور الذي كتب على شاكلتهم ليلبي مصالح المحتل ومصالح الكتل الكبيرة في الشمال والجنوب والذي ما زال الشك يحوم حوله لعدم شرعيته، نقول بالرغم من كل ذلك فان هؤلاء المتآمرين لم يحترموا قدسية بنوده، فاي برلمان هذا واي عدالة وديمقراطية هذه؟!

ان تبرئة بعض الأحزاب المتنفذة على الارض العراقية من جرائم قتل المسيحيين غير منطقي ولا مقبول، فعلى المسؤولين اثبات وطنيتهم وكفاءتهم من خلال ضبط ميليشياتهم والاسراع بالتصدي لكل من يريد سوءا بسكان ما بين النهرين الأصليين، لقد تبين لدى العراقيين دون استثناء بوجود نفس طائفي متطرف تتلاقى مصالحه مع النفس الإرهابي، ولذلك على قيادات الأقليات ومنهم المسيحيون التنبه والحذر لما قد يخبئه لهم المستقبل المجهول في العراق.

ان ما حدث للمسيحيين في العراق بعد الحرب يندى له الجبين ولا يقبله اي عرف او دين، لقد تم توزيع منشورات على الدور المسيحية الآمنة داعية نساءها المسيحيات إلى ارتداء الحجاب وعدم كشف وجوههن، مما اجبر المئات من العوائل المسيحية للهروب تاركة منازلها للسراق المشعوذين، فان كانت حكومتنا تدعي انها تحكم بدستور يعتمد على شرع الاسلام، فاين هم من الدين؟ اننا نؤكد بان ثقافة التمييز الطائفي او المذهبي او القومي التي تنتهج اضطهاد الأقليات ما هي الا ثقافة غزتنا من خارج الحدود وان صبغتها شلتنا لم ابينا طائفية متطرفة.

ايها المسؤولون نذكركم بانه ومنذ الحرب في ٢٠٠٣ والى هذا اليوم فان كنائس المسيحيين اصبحت هدفاً للتفجيرات، وآخرها تفجيرات كنائس الموصل، وان الكهنة من اعلى الرتب الى ادناها يتعرضون كل يوم للقتل والذبح او الإختطاف بهدف الحصول على الفدية، ونذكركم بان الذين لم يستطيعوا الهرب لظروف نفسية او اقتصادية او غيرها فقد اصبحوا رُحّل مشردين في داخل الوطن، وان جزءاً منهم يعيشون في الشمال العزيز.

اختم مقالتي هذه للتأكيد على ان سكان ما بين النهرين الأصلاء من المسيحيون وغيرهم وهم اقلية بالمعنى العددي تواقون لرؤية عراق تعددي ديمقراطي، ولكن ليس على طريقة فدرالية الأحزاب الدينية الطائفية او القومية العنصرية، ولذلك فاني ادعوا قادة احزابنا وأبناء شعبنا صغيرا وكبيراً بالمطالبة الملحة بحقوقنا المشروعة كاملة وغير منقوصة ضمن العراق الموحد، فمن حقهم التمتع بالفدرالية او الحكم الذاتي متى ما تحققت حكومة مركزية بديمقراطية حقيقية شفافة ترفض سياسة الضم والصهر، وهنا اناشد الوطنيين العراقيين بكل انتماءاتهم بالوقوف الى جانب معاناة هذه الأقليات الدينية والقومية ومن ضمنهم المسيحيون والضغط على المسؤولون باهمية حمايتهم.

ان ضمان وحدة العراق من خطر التقسيم الجغرافي او القومي الذي يخطط له البعض من الأحزاب الدينية الطائفية والقومية الشوفينية لن يتحقق الا من خلال حماية ارواح الأقليات، ان الممارسة الديمقراطية وحرية التعبير والانتماء تبدأ بمنح حقوق الأقليات جميعا كما انها تصب في المصلحة الوطنية العليا وتقلل من فرص تقسيم العراق، كما ان رفض فكرة "الضم" الجغرافي او الصهر الثقافي او الربط الحزبي لأي جهة كانت يجب ان تكون مرفوضة من قبل قادة شعبنا من الكلدان والسريان والآشوريين، واعتبار ما مضى من تكتلات او اصطفافات شعبنا من الماضي.

نقاط ملونة

حنان الحسني

السعادة

الناس تنشد السعادة الدائمة ولا يريد المرء منا ان تكون السعادة وقتية ذلك ان اضطرادها بالتنامي يتطلب ان تكون حالته السعيدة دائمية في ديمومة الاستمتاع بالحياة لا ان تكون السعادة على حافة الانهيار لذلك كان القدماء يقولون ان الاستقرار في الحياة هو السعادة، كثيرا ما يسأل المرء نفسه كيف اصنع الراحة والاستقرار لاكون سعيدا هل المادة لوحدها كافية لنيل ما يريد المرء من استقرار في حياته ام ان هناك امورا مضافة تكتمل الراحة والاستقرار بها لتكون النتائج ايجابية في صنع حياة افضل، انه لمن المنطق ان تكون الامور مجتمعة لاستحصال النتائج بايجابياتها الا ان الاهم هو كيفية الحفاظ على تلك النتائج وديمومتها الى الحد الذي لايخاف المرء على فقدان سعادته وقد تكون احدى تلك الامور المهمة في ذلك كله هو حيوية الضمير وكيف ان المرء هو راض عن كل تلك المقاييس من خلال الفعل والعمل لا التنظير اضافة الى كيفية التعامل مع الاخرين بطريقة لا يشوبها الرياء واصطياد الفرص من اجل الوصول الى اهداف يصل بها المرء عن طريق الالتواء وحسابات يقلب بها المصالح الضيقة على المصالح الواسعة التي فيها خدمة المجتمع واختزال المسافات بين النقاط بغية الوصول الى السعادة الدائمة ليس على حساب المبدأ والاعراف بل ان هاتين السمتين هما اساس للانطلاق نحو تحديد الاهداف المرجوة في الاتي من الزمان والمكان جلست ذات مرة في احدى الكافتريات وانا احتسي القهوة التي كانت بطعم الهيل اذ تسمرت عيناي صوب طاولة ابطالها سعداء فعلى وجوههم الانشراح وعدم التشنج يتعاملون فيما بينهم كانهم قد كمل الواحد منهم الاخر وحتى ما كان منهم في التعامل المادي كان الصدق سمة بارزة له من قال ان القضية الفلانية هي كذا وكذا كان قوله صدقا لا يخطر الواحد منهم الى اقناع الاخر بالحلف والقسم كل قد اخذ استحقاته من الحياة وقنع به لا يتناسى في الوقت عينه الطموح نحو الافضل.. بغير اضرار بمصالح الاخرين.

جان دمو

يونام بنيامين

الصبيتان ....تبحثان عنه...

في احد الايام لم يدخل الاسد الغابة، علوا انا لااتحدث عن قصة كان في قديم" الزمان، بل واقعية في حدثها وفي روعة نكهتها العذبة الشفافة كالبلور لان الحديث حقا يحلو عن جان دمو. والفراغ الادبي الذي تركه.

قال لي القاص الراحل نزار عباس صاحب المجموعة القصصية الوحيدة-الفئران- كنت اهم بالدخول الى مقهى "حسن عجمي" فجاءني الصوت "عمو،عمو" -قد سؤال.. التفت واذا- صبيتان بعمر الورد، نحن جئنا من كركوك ونبحث عن شقيقنا الاديب جان دمو، ونريد ان نلتقي ونعرف اخباره....

رجعت عدة خطوات ووقفت عند صاحب الشربت -اشربا من شربت حجي زبالة المشهورة في الحيدرخانة ومقابل كعك السيد، وحتى جان اخوكم يشرب منه احيانا.

-عمو: يعني تعرفه جيدا

-بلى: اعرفه وهو صديقي ومؤدب من طراز فريد من نوعه.

ولما كانت احداهن تريد المزيد عن اخيها جان....

وهل يدخن كثيرا واين ينام وسمعنا يشرب كذلك....؟!!

-بلى، بلى انه قديس "يلازم باب الكنيسة ٢٤ ساعة" مع ضحكة طويلة "جان- غادر كركوك وصار ابن بغداد "يشرب ويدخن ومفلس" وليس له مكان دائم في الاقامة.

- ارجعا الى ذويكما فهو حي يرزق "عام ١٩٨٥" والله يكون في عونه

- سلموا على اهلنا هناك وهذه اجرة الرجوع يا بناتي...

يدفع اجرة احدى السيدات

قال الراوي، علوا قال جان دمو: جلست بقربي سيدة فاضلة وهي تارة تبكي وتجهش وتارة تعاتب "العطالة ومساوئها.." من يوم الملوكية- يعني الملكية. حتى يومنا هذا.....

- جئت الى الشورجة كي اشتري "لمبة ام المرآة" وفي الازدحام "يا ولدي" تقول لا ادري هل سرقوا محفظتي ام هي سقطت، لانني امرأة كبيرة وانا على الحافة كما يقولون، سوف اواجه ربي هناك، والحساب عسير وعسير اذا اتهم احدهم وعلى الفور قال جان:

-لا تخافي مشكلتك محلولة من الشورجة حتى ساحة النصر سوف ادفع اجرتك وعن طيب الخاطر

وليس هناك شك في الموضوع ويسقط شيء وانت لاتدرين هنا الايادي، تجر كل شيء، انا اتصور "وهذه رأي". ان المحفظة قد سرقت والسلام.

اما انت تقولين، لا تعرفين هل سرقت ام سحبت بذكاء وشيطنة و هذا هو الاحتمال الكبير الوارد من نفوس ضعيفة وهم مثل بعوضة الملاريا تكثر وحاشى "الشورجة" في المستنقعات يا سيدتي وامنا من الكرادة الحبيبة، لاتخافي الجنة للاتقياء وجهنم للصوص والنشالين "روحي بابا" هذه بغداد فيها خوش وفيها مو خوش...

يبحث عن السيكائرفي الشورجة

عندما اشتدت الازمة الاقتصادية في البلد. وكانت السيكائر هي الاخرى تفتقد وتشح علينا، ورحلت العوائل البغدادية ومن المحافظات تلم الارزاق الجافة والضرورية الاساسية لمقاومة المستقبل اللازاهر والمجهول المخيف حقا.. وكان جان ضمن الناس المتواجدين او الذاهبين في طريقهم هناك....

وقد اشترى "ماكنة لصنع السيكائر اليدوية حتى الخيط الاخير" وقد طلب من احدهم ان يلف اكبر كمية من السيكائر ويقول جان لقد تحول الى معمل ينتج سيكائر جمهوري.

رأيته بالصدفات التي لا تنقطع لان الرجل لا يفارق باب المعظم وحتى اخر زقاق في البتاوين ولما كان شغلنا في هذه الرقعة الجميلة من جسد بغداد الرائعة.

فالحضوردائم، فقال لي ملطفا الجو الكئيب انذاك "لازم صاير تاجر..."

- جان لا تاجر ولا يطبخ القوش.

اني ابحث عن الشموع، لان الكهرباء غابت كليا عن منطقتنا، فقال جان هذه ضريبة التصفيق والهتاف التلقائي... وبصراحة بالغة..

بالمناسبة الشموع التي تريدها للانارة فقط ام للتدفئة والتبريد مع قفشاته وضحكاته الواثقة من تجاويف قلبه وصدقه للحياة والكون وغاب على قرب كنيسة الاقباط مقابل منارة جامع الخلفاء لايام جلال الحنفي العالم والجليل الذي رحل عنا تاركا الطيور القارة من سوق الغزل تبحث عن لطفه ومسبحته ووقاره تحت ظلال الحوش المليء بالعصافير.

مغزى زيارة كربلاء.. وسانتياغو دي كومبولا.. وذي الكفل...؟؟

علي الاسدي

المشاهد للمسيرات الحاشدة من النساء والرجال المنطلقة من مختلف مدن العراق وقراه، وهي تتجه نحو كربلاء في عاشوراء سيرا على الأقدام، يتساءل: ما خطب هؤلاء، يتركون بيوتهم وأعمالهم، متحملين العناء كله، ليؤدوا زيارة لمرقد رجل مضى على استشهاده أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمن؟ لكن للذين شاهدوا عن قرب، أو سمعوا عن طقوس دينية مماثلة من غير المسلمين، تجري في مجتمعات أوربية أكثر تقدما ثقافيا واقتصاديا من مجتمعنا، فلن يصابوا بالدهشة أبدا، فالناس هناك تقطع مئات الكيلومترات أيضا، مشيا على الأقدام، يدفعها ذات الشعور الانساني الذي يقود ملايين الناس الفقراء لكربلاء. كامينو دي سانتياغو مدينة اسبانية تقع في الشمال الغربي من البلاد، أخذت شهرتها التاريخية بسبب ما قيل عن وجود ضريح القديس جيمس فيها الذي يؤمه للزيارة والتبرك المسيحيون الكاثوليك من شتى أنحاء أوربا والعالم. أطلق على الطريق المؤدي إلى ذلك المزار بطريق سانت جيمس. أما وجود مزار القديس جيمس في سانتياغو فمصدره أسطورة، مفادها، أن ناسكا مسيحيا اسبانيا، عاش في القرن التاسع الميلادي قد رأى أثناء منامه أن أحدا أمره بالسير باتجاه النجوم ففعل كما أمر به، حتى انتهى به المطاف إلى موقع في سانتياغو في اسبانيا. في ذلك الموقع عثر الناسك على رفاة القديس جيمس، ومع مرور الوقت انتشرت تلك الاسطورة بين مسيحيي العالم، وعلى إثرها شيد في المكان ضريح وكنيسة باسم القديس جيمس، ومنذ ذلك الوقت تحول الضريح إلى مزار تتجه لزيارته ملايين الناس سنويا. وقد ساد في حينها اعتقاد بين الناس أن المشي على الأقدام لذلك المحج يخلصهم من ذنوبهم ويضمن لهم الجنة في الآخرة. وبرغم تقدم المواصلات ووسائط النقل الحديثة إلا أن الناس يصرون على المشي على الأقدام أو باستخدام الدراجات الهوائية، والقليل منهم يستخدم سياراته الخاصة.

الطريق الرئيسي للحج يبدأ من مدينة صغيرة في فرنسا اسمها لوردس، فيما تتوجه جماعات من الزوار من ايطاليا مرورا بأهم المدن الاسبانية في الشمال مثل سان سيبستيان وبلباو، حيث يستريحون خلال رحلتهم في آلاف الفنادق التي تنتشر على الطريق، اضافة إلى المطاعم والمقاهي والمحال التجارية المتخصصة بالسلع ذات العلاقة بالزيارة والمزار. وتقع على الطريق أيضا العديد من المستشفيات والمراكز الصحية ومكاتب لختم جوازات الحجاج لاثبات أدائهم فريضة الحج. كما شيدت عشرات الجسور على الأنهر المحاذية للطريق لتسهيل انتقال الحجيج إلى المواقع الدينية الأخرى حيث عشرات الكنائس التاريخية. يفضل الزوار رحلة الحج في الربيع أو الصيف، ذلك لأن الطرق الجبلية التي يمر عبرها طريق الحج تتجمد أيام الخريف والشتاء، ما يعني أن الزيارات التي يؤديها الناس غير مرتبط بشهر أو تاريخ معين، على عكس الحال مع المسلمين عند أداء فريضة الحج إلى مكة التي تبدأ في شهر ذي الحجة، أو الزيارات الحسينية التي تبدأ في شهر محرم.

يبلغ طول الطريق من فرنسا حتى محج القديس سانت جيمس في سانتياغو حوالي ٩٠٠ كم وتستغرق الرحلة ٣٠ يوما بمتوسط سير ٣٠ كم في اليوم، وتنقل مصادر تاريخية بأن المزار كان موجودا مدة طويلة قبل المسيحية، حيث يواصل الزوار رحلتهم شمالا حتى شواطئ المحيط الأطلنطي عند كاليسيان التي اعتبرت طبقا لمعتقدات الناس حينذاك نهاية العالم. كان التقليد الشائع قبل المسيحية أن يحمل المشاة المتوجهون إلى المزار حرشفا لمحار بحري، تشبه هيئته الخارجية أشعة الشمس أثناء غروبها، حيث يعتبرونه رمزا للخير والنماء. وكما ورد في الأساطير فإن المشاة بعد أدائهم زيارة المرقد يتابعون رحلتهم حتى شواطئ الأطلنطي، ويبقون هناك ليشاهدوا النجوم وهي تغرق في مياه المحيط الذي سمي أيضا ببحر الظلمات أو بحر الموت، حيث تموت النجوم منهية رحلتها الأخيرة استعدادا لتبعث من جديد. فيما ترى مصادر أخرى أن مزار القديس جيمس قد شيد منذ ١٠٠٠ عام، ويعتبر المزار بالنسبة للمسيحيين الكاثوليك في العالم في المرتبة الثالثة في الأهمية بعد الفاتيكان في روما والقدس في فلسطين.

من هو القديس جيمس؟

تقول الروايات المتاحة في كوكل وغيره أنه في عام ٤٤ للميلاد وأثناء عودة الحواري جيمس إلى مدينة القدس بفلسطين ألقي القبض عليه ونفذ بحقه حكم الاعدام بقطع الرأس بأمر من هيرودس أغريبيا الأول. ووفق هذه الأساطير أن الملائكة نقلوا جثة القديس عبر البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، ثم اتجهوا به غربا عبر ميناء جاليسيا الروماني حيث دفن في سانتياغو دي كومبولاستيلا. لكن أهمية طريق الحج أو طريق القديس جيمس قد تضاءلت كثيرا في القرن الثاني عشر إثر تصاعد حركة الاصلاح الديني التي قادها المصلح البروتستانتي مارتن لوثر كينك. لكن أهميته عادت ثانية للتزدهر في الثمانينيات كزيارة دينية وسياحية، امتدت شهرتها في كل انحاء العالم.

وفي فرنسا أيضا تعتبر مدينة لوردس محجا لملايين الزوار المسيحيين الكاثوليك، حيث موقع كنيسة السيدة العذراء. وتنقل الأساطير عن هذا المحج، انه في عام ١٨٥٠ ظهرت السيدة العذراء في مدينة لوردس ١٨ مرة أمام طفلة أسمها برناديت سوبيروس، حيث طالبتها العذراء أن تنقل رغبتها إلى أبرشية لوردس لبناء كنيسة في المكان نفسه الذي ظهرت فيه، وذلك من أجل تقريب العلاقات بين ابنها عيسى المسيح والمجتمع. وقد شيدت بالفعل كنيسة استقطبت اهتمام ملايين الناس في العالم، ويذكر أن ستة ملايين حاج يأتي لزيارة الكنيسة كل عام من داخل فرنسا ومن خارجها. مدينة لوردس الصغيرة التي لا يزيد عدد نفوسها عن ١٥ ألف نسمة، فيها من الفنادق أكثر من أي مدينة فرنسية عدا باريس العاصمة، وذلك لعظم أعداد الحجيج الذي يؤم المدينة لزيارة كنيسة العذراء مريم. وكذلك الحال مع كنيسة فاطمة الواقعة في مدينة صغيرة عدد نفوسها ٨٠٠٠ نسمة الواقعة على بعد ٧٥ ميلا شمال لشبونة العاصمة البرتغالية، حيث يؤمها الزوار بأعداد تصل إلى الملايين سنويا. ولا تنفرد هذه المدن بهذه المشاهد بل يمكن مشاهدتها أيضا قرب أضرحة القديسين في مدن إيطاليا واليونان والمكسيك وفي أماكن أخرى في بقية العالم.

الاعتقاد السائد بين زوار هذه الأضرحة أن للقديسين القدرة على شفاء الأمراض المستعصية، وأن المعاناة التي يقاسونها أثناء قدومهم للزيارة يجلب لهم رضا الرب ويمنحهم الشفاء. لذا تجد أن بعض الزوار يقومون بالزحف على الركبتين أو على الأطراف الأربعة لمسافة عدة كيلومترات محملين أنفسهم متاعب إضافية سعيا لتحقيق ما جاؤوا من اجله. والبعض يقوم بحمل المريض الطفل على الظهر أو بين يديه ويحبو على ركبتيه حتى الضريح. مشهد الأفراد وهم يزحفون حاملين مرضاهم لتكررحول مزار القديس جيمس في سانتياغو الاسبانية، وكذلك عند كنيسة فاطمة حيث تمثال مريم العذراء الواقعة على بعد ٧٥ ميلا شمال مدينة لشبونة العاصمة البرتغالية. ولا تنفرد هذه المدن بهذه المشاهد بل يمكن مشاهدتها أيضا قرب أضرحة القديسين في إيطاليا واليونان وفي بقية دول أوربا والعالم.

لا يقتصر التردد على المزارات المقدسة على المسيحيين الكاثوليك وحدهم، فالمسيحيون البروتستانت والأرثوذوكس والمسلمون واليهود والمندائيين والأيزيديين لهم طقوسهم المماثلة وإن تباينت أعداد زوارها. إنها مشاعر بشرية عامة لازمت الانسان منذ مراحل وجوده الأولى وحتى أيامنا الحالية، وهي تعكس شعور الانسان بالضعف أمام قوى الطبيعة الخارقة، أو الأخطار التي يسببها البشر ذاتهم التي قد تهدد ممتلكاتهم أوحياتهم. ومن هنا تتشبث الجماهير الفقيرة المستضعفة بالقوى الغيبية ممثلة بأولئك الأنبياء والقديسين الذين يتوسمون فيهم الأمل والعون لتحسين أحوالهم ورفع الحيف عنهم. فزيارة أضرحتهم والبكاء على قبورهم لم يأت من لا شيء، بل من حاجة الناس لمعونة لم تستطع قدراتهم البدنية والعقلية الإيفاء بها. والمجتمع العراقي الذي تعرض للكبت والحرمان والاضطهاد القومي والطائفي والسياسي من قبل حكامه عبر التاريخ، يجد في زيارة أضرحة الأنبياء سبيلا للتعبير عن أحزانه ومآسيه، وكذلك عن أفراحه وآماله بغد أفضل.

بعكس نظرة النظام السابق العدائية للطقوس الدينية الشيعية التي كان يمارسها الناس في بعض مواسم العام، تتصرف حكومات الدول المتقدمة باحترام مزاولة الناس لطقوسهم بصرف النظر عن أصولهم. فهذه الأخيرة تمنحهم الدعم والحماية الضرورية، وتعامل المزارات وزوارها باعتبارها تراثا ثقافيا، يوحد ملايين الناس في مشاعر التصالح مع ذاتهم ومع بعضهم. ولتأكيد القيمة الروحية والتراثية لتلك المواقع بادرت المنظمة الدولية للأمم المتحدة بحماية تلك المزارات التي تجلب ملايين الناس للزيارة وأداء الصلاة والتعبد فيها، كما اعتبرتها منظمة الثقافة والآداب والعلوم معلما ثقافيا واجتماعيا جدير بالعناية. يعتبر العراق أكثر بلدان الشرق الأوسط ثراء بالمزارات الدينية التاريخية لمختلف الأقوام التي تسكن أوسكنت وتعايشت في وادي الرافدين، حيث يعود بعضها إلى الحقبة السومرية والبابلية والآشورية. وتحظى المزارات اليهودية في نفوس اليهود العراقيين بأهمية بالغة، إذ برغم هجرتهم أوتهجيرهم القسري من بلادهم العراق في أربعينيات القرن الماضي بقوا متعلقين بأضرحة أنبيائهم المقدسين. وكما تذكر كتابات بعضهم في وسائل الاعلام أن لديهم رغبة قوية للعودة إلى العراق وطنهم الأم، لزيارة أضرحة النبي نوح وإبراهيم وأيوب وحزقيال "ذي الكفل" وأضرحة عزرا ويحزقيل ويونان وناحوم وغيرهم. وللمسيحيين مزارات مقدسة يؤمونها في مختلف أوقات السنة تبركا وسعيا لرضا الرب عنهم. وبالنسبة للإيزيديين الذين يعتبرون من المكونات العريقة لمجتمعنا العراقي، فلهم مزاراتهم الخاصة بهم يؤمونها في بعض أيام السنة تعبدا وطلبا للخير والبركة. وتحظى الطائفة المندائية بحرية مزاولة طقوسهم الدينية والشعبية على هدى أسلافهم منذ آلاف السنين، فهم كالأيزيديين تمتد جذور ثقافاتهم عميقا في التاريخ العراقي.

مثل هذا الميل القوي لدى الناس لزيارة أضرحة أنبياء وقديسين، رجال أو نساء مضى على وفاتهم الآف أو مئات السنين، لم يأت من لا شيء، بل من حاجة الناس لمعونة لم تستطع قدراتهم البدنية والعقلية الإيفاء بها، ولهذا يتوجهون نحو قوى يعتقدون أنها الوحيدة القادرة على مد العون والتعاطف وتخفيف المعاناة عنهم. وعلينا بصرف النظرعن معتقداتنا الدينية واللادينية احترام معتقدات الناس ومشاعرهم، وبفضل ذلك وحده ستتفهم مغزى أن يتوجه من لا حكومة عادلة ونزيهة له صوب السماء طالبا العون، أو مغزى، أن تزحف أم على ركبتيها لمئات الأمتار حاملة وليدها المعاق نحو ضريح الإمام الحسين، أو ضريح الإمام النعمان، أو كنيسة مريم العذراء، أو مرقد ذي الكفل.